المنشآت الاقتصادية التاريخية

عبد القادر الريحاوي
المديرية العامة للآثار والمتاحف

تمثل المنشآت والمؤسسات الاقتصادية جانباً هاماً من النشاط الاقتصادي الذي تميزت به بلاد الشام خلال العهود التاريخية، فهي المظهر المتميز للتبادل التجاري بينها وبين شعوب البلدان الأخرى، من الشرق والغرب.

وكانت كل من مدينتي دمشق وحلب في طليعة المدن السورية من حيث العناية بالمؤسسات التجارية كالخانات والقيساريات، كذلك كانت طرق القوافل مزودة بالخانات والفنادق لتأمين راحة التجار والمسافرين.

فسورية كجزء من المنطقة العربية تتمتع بموقع جغرافي متميز بين القارات، ظهرت مكانتها الإستراتيجية منذ أقدم العصور، وتناوبت مع دول المنطقة السيطرة على التجارة العالمية ونقل السلع المحلية والأجنبية في رحلات تجارية منتظمة.

ولقد تمكنت اليمن منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولاسيما في عهد دولتي معين وسبأ من السيطرة على طرق التجارة ونقل السلع من الصين والهند وفارس.

ثم نشطت دول الأنباط وتدمر والغساسنة والمناذرة وأهل الحيرة والحضر، خلال القرون الأولى للميلاد وقبل الإسلام، في توليي شؤون التجارة العالمية.

وكان من أهم السلع وقتئذ، حرير الصين، وسيوف الهند وتوابلها، ولآلئ الخليج، ومنسوجات الحرير الشامي، وسلع اليمن كالعطور والصمغ والكافور والمرو.

وحقق تجار تدمر في هذه الفترة تفوقاً ملموساً، فوصلت قوافلهم إلى موانئ الخليج العربي لتجلب منها بضائع الهند إلى بلاد الشام، ثم تنقلها عبر الموانئ السورية إلى بلدان البحر المتوسط، كذلك وصلت قوافله إلى مصر والبحر الأحمر واليمن والبتراء.

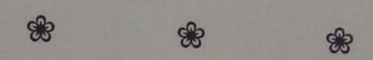
وينتقل النشاط التجاري بعد سقوط دولة تدمر إلى الحيرة والحضر في العراق، وكان لتجار الحجاز في العهد البيزنطي نشاط تجاري هام مع بلاد الشام.

ونشط تجار المنطقة العربية بعد الإسلام وقيام الدولة العربية الإسلامية الممتدة الأرجاء، فسيطروا من جديد على تجارة البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والبحر الأسود والمحيط الهندي، وحفلت المدن الكبرى والطرق الرئيسية في سورية بالمؤسسات الاقتصادية، الصناعية والتجارية، وبمحطات القوافل، وظلت الصلات التجارية قائمة بين أوربا وسورية بعد حركة الإستكشافات والإستعمار، تشهد على ذلك الجاليات الأوربية التي تتخذ منازل لها خانات وقيساريات استمرت حتى القرن العشرين.

والحديث عن المنشآت الاقتصادية يتسوجب التعريف بأسمائها ووظائفها كمصطلحات استمر استعمالها قروناً طويلة، كالسوق والخان والفندق والقيسارية والوكالة.

وكذلك إلقاء نظرة على الصفات المعمارية لهذه المؤسسات، التي مازال الكثير منها باقياً إلى يومنا.

فمحطات القوافل على الطرق تتكون من فِناء حوله قاعات من طابق واحد، بينما تتكون الخانات والقيساريات في المدن من طابقين، وقد سقفت بعض الفناءات من العهد العثماني بمجموعة من القباب، كما في خان أسعد باشا في دمشق.



تمثل المنشآت والمؤسسات الإقتصادية التاريخية جانباً هاماً من النشاط الاقتصادي والحضاري الذي تتميز به بلاد الشام، بل هي المظهر الرئيسي لطريق الحرير والتبادل التجاري بين الشعوب على مر العصور.

وفي طليعة المدن التي اشتهرت بنشاطها ومؤسساتها في بلاد الشام والمنطقة العربية مدينتا دمشق وحلب اللتان مازالتا تحتفظان بالعديد من الخانات والقيساريات.

كذلك كانت الطرق المواصلات تزود بالفنادق والخانات كمحطات لقوافل التجار والمسافرين.

وتحدثنا كتب التاريخ والرحلات عن هذه المنشآت بالتفصيل وعن ظروف بنائها ووظائفها وأقسامها المعمارية ونشاطاتها التي حفلت بها في كل عهد.

ولئن اندثر بعض هذه المؤسسات أو بطلت وظيفته، فإن عدداً هاماً مازال قائماً، بعضها بحالة جيدة من الناحية المعمارية، والبعض يستخدم في الأغراض التجارية والصناعية التقليدية، وبعضها عاد سيرته الأولى، فتحول إلى مقر للقنصليات والسفارات الأجنبية، بعد أن كان مقراً للجاليات الأجنبية.

أولاً: أهمية بلاد الشام والمنطقة العربية في التجارة العالمية:

لاشك أن المنطقة العربية تتمتع بموقع جغرافي متميز بين القارات الثلاث، آسية وأفريقية وأوربة، ظهرت أهميته الاستراتيجية منذ أقدم العصور، وخَوَّل هذا الموقع سكان المنطقة ودولها السيطرة على التجارة العالمية، ونقل السلع بين بلدان الشرق والغرب، في البر والبحر.

كما لعب هذا الموقع دوراً هاماً في سير أحداث التاريخ العالمي، تأثرت به دول المنطقة والدول المجاورة لها، سلباً وإيجاباً، فجلب لها الخير والشر.

وتناوبت دول المنطقة السيطرة على التجارة العالمية ونقل السلع المحلية والأجنبية في رحلات تجارية منتظمة، عبر طرق ومحطات، توزعت بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب.

وتمكن تجار اليمن منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولاسيما في عهد دولتي سبأ ومعين من السيطرة على طرق التجارة، بين جنوب المنطقة العربية وشمالها، وعلى طريق التجارة البحري، لنقل السلع من الصين والهند وفارس.

ثم نشطت شعوب الأنباط والتدامرة والمناذرة والغساسنة وأهل الحيرة والحضر، في السيطرة على النشاط التجاري بين بلدان المنطقة (الشام والعراق ومصر وجزيرة العرب) وبعض جزر اليونان، وبين الشرق الأقصى، كالهند والصين وفارس.

وكان من أهم السلع وقتئذ حرير الصين، وسيوف الهند وتوابلها، ولآلئ الخليج، ومنسوجات الحرير الشامي، وسلع اليمن، كالعطور والصمغ والكافور والمرو.

ومما يدعو للإعجاب أن يحقق شعب تدمر القاطن في بادية الشام تفوقاً في النشاط التجاري، خلال القرون الأولى للميلاد، ولاسيما بعد سقوط دولة الأنباط ووصلت قوافل التدامرة إلى موانئ الخليج لتجلب بضائع الهند إلى بلاد الشام متنقلة بعد ذلك من (دورا أوروبوس) على الفرات فإلى أنطاكية على البحر المتوسط، حيث تنتقل السلع من الموانئ السورية إلى جزر اليونان وموانئ الإمبراطورية الرومانية، وتجوب قوافل أخرى الطرق الممتدة بين تدمر والبحر الأحمر ومصر واليمن مارة بالبتراء (سلع).

وينتقل النشاط التجاري بعد سقوط تدمر إلى المحطات العربية الأخرى في أطراف العراق، كالحيرة والحضر، طوال عهد الدولة البيزنطية، مستفيدة من الصراع الدائر بينها وبين دولة الفرس، ويستمر ذلك حتى الفتح الإسلامي، وتشير المصادر إلى ماحصل عليه أهل الحيرة من الثراء من جراء النشاط التجاري الذي انعكس على حياتهم، فسادها الترف والتأنق الحضاري، كما عبر عنه الرواة والشعراء.

أما الحجاز فكان له الصدارة في التجارة مع بلاد الشام قبل الإسلام، وكان لقريش، بالإتفاق مع الحكام البيزنطيين، أن تنزل قوافلها في مدن بصرى والقدس وغزة، وغدت بصرى الشام سوقاً مفتوحة لتجار قريش، وكان في إحدى قوافلها إلى بصرى الرسول العربي محمد صلى الله عليه وسلم، قبل النبوة.

ويتحول سكان المنطقة، بعد ظهور الإسلام في جزيرة العرب وإنتشاره، إلى أمة واحدة، تحكمها دولة واحدة قوية عاصمتها دمشق، وتمتد حدودها إلى الهند والصين شرقاً وإلى إسبانيا والأطلسي غرباً، وتسيطر كذلك على البحار الهامة (الأبيض والأسود والأحمر والمحيط الهندي)، وعلى جزر عديدة، كصقليا وقبرص ورودوس وغيرها، وكان طبيعياً أن تصبح السيادة على التجارة العالمية لشعوب هذه المنطقة بمالديها من تقاليد موروثة، ومهارات وخبرات عريقة.

وهكذا أصبحت المنطقة العربية خلال عهود طويلة أكثر أهمية ونفوذاً عن ذي قبل في ميدان التجارة العالمية.

وبالرغم مما أصاب العالم الإسلامي من تمزق وتجزؤ من الناحية السياسية، فإن شعوبه ظلت متواصلة متعاونة في النواحي الأخرى، ولاسيما منها، التجارية والاقتصادية، وظلت الأسواق هنا وهناك عامرة بسلَع الشرق والغرب.

وغصت المدن الكبرى والطرق الرئيسة بالمؤسسات الاقتصادية المختلفة، وبمحطات القوافل، كالفنادق والخانات والقيساريات والوكالات، التي مازال العديد منها باقياً إلى يومنا هذا، وتعتبر شواهد حية على ذلك النشاط المتميز.

وتظل المنطقة العربية في القرون الأخيرة محتفظة بمكانتها التجارية بالرغم من إنتقال التفوق والنفوذ إلى الدول الأوربية، في أعقاب حركة الإستكشاف والإستعمار، والسيطرة بالتالي، على البحار والطرق العالمية، ولكن تبقى الصِّلات قائمة بين الجاليات الأوربية والبيوتات التجارية في العديد من الموانئ والمدن الكبرى في المنطقة العربية.

أشارت المصادر إلى تخصص بعض الخانات والقيساريات بتجار الفرنج، مثال ذلك قيسارية ابن اليافي في دمشق [١].

وظل العديد من الخانات مقراً لهذه الجاليات حتى نهاية الإنتداب الفرنسي، عرفتُ في حلب واحدة تقيم في خان النحاسين [٢] وأخرى في خان الجمرك.

أما خان البنادقة القائم خالياً في منطقة الأسواق فكان مخصصاً لتجار البندقية كما يدل عليه اسمه [٣].

ثانياً: المصطلحات الخاصة بالمنشآت التجارية القديمة ووظائفها

الحديث عن المنشآت القديمة التي لعبت دوراً هاماً في النشاط الاقتصادي المحلي والعالمي، يستوجب التعرف على ما كانت تحمله من مُسَمَّيات إختلفت بإختلاف الزمان والمكان، وتبعاً للوظيفة التي تشغلها ومايمارس فيها من نشاط.

وتأصلت هذه المُسمّيات كمصطلحات أساسية شاعت على الألسن، وتناقلتها كتب الرحلات والتراجم، وأثبتتها النصوص والوثائق التاريخية، مماسيتوضح لنا من خلال الدراسة التي توصلنا إليها للمصطلحات التالية: السوق ـ الفندق ـ الخان ـ القيسارية ـ الوكالة.

١ـ السوق:

السوق كما هو معروف، مصطلح عربي قديم، بل هو أول المؤسسات الاقتصادية التي عرفتها المجتمعات الحضرية، وكان للعرب قبل الإسلام أسواق مشهورة في المدن وخارجها، اشتهر بعضها كمنتديات ثقافية. وقد فسَّرت بعض المعاجم هذا المصطلح بالعبارة التالية: سميت السوق سوقاً لأن الناس يقفون فيها على سوقهم وهي كلمة يصح فيها التذكير والتأنيث.

وحصلت الأسواق في مدن بلاد الشام على عناية من حيث العمران والعمارة، وتنوعت وظائفها بحسب السلع أو المهن التي خُصَّت بها، وغدى معظمها مسقوف الفناء. وأحسن مثل لهذا النوع من الأسواق نجده في مدينة حلب القديمة التي تغطيها أقباء طويلة بنيت بالحجر المنحوت، وزودت بفتحات للنور والهواء، وغدت الأسواق في العهد العثماني تضم مؤسسات ضرورية في كل منها، كالخان والمدرسة والمسجد والحمام، وأحسن مثل لمثل هذا النوع من الأسواق نجده في أسواق دمشق، البزورية والخياطين والحميدية.

٢ـ الفندق:

كلمة معرّبة، وهي من أصل لاتيني، أخذها العرب عن الفرنج خلال الحروب الصليبية، لأننا لم نجد لها ذكراً في المراجع السابقة للقرن السادس الهجري (١٢م)، وقد ورد في الموسوعة الإسلامية(٤) أن أصل الكلمة يوناني (پاندوخيتو)، ثم انتقلت إلى اللاتينية وأصبحت (فنداجي).

لقد أُطلق الفندق كمصطلح على المباني التجارية المنشأة داخل المدن، وعلى محطات القوافل المقامة على الطرق العامة، وشاع إستعماله في بلاد الشام بشكل خاص منذ القرن السادس الهجري سنة (١٢م) حيث عثر على أقدم استعمال لهذا المصطلح عند المؤرخ ابن عساكر، وذلك خلال حديثه عن الفنادق الموجودة في أيامه بمدينة دمشق، وذكر منها عشرةً، وأضاف إليها المؤرخ أبو شامة اثنين آخرين. كما عثرنا في النصوص المنقوشة على المباني القديمة خبراً عن اثنين لم يأت ذكرهما عند المؤرخين المذكورين، أحدهما يسمى فندق الحلبيين(٥)، ورد ذكره في نص وقفي منقوش على باب الجامع الأموي الشمالي (باب الكلاسة)، مؤرخ في تسع وثلاثين وستمائة (١٢٤١م). والثاني ورد ذكره في النص المنقوش على باب جامع التوبة الكائن بمحلة العُقيبة، وهو مؤرخ في عام تسع وأربعين وستماية (١٢٥١م). ويقع الفندق المذكور غربي (دار البطيخ) التي كانت في محطة (تحت القلعة) أسفل سوق ساروجة وتسمى هذه المنطقة اليوم بسوق الهال.

على أن الفندق الوحيد الباقي إلى يومنا هو محطة القوافل الواقعة على الطريق بين دمشق وحمص، قريباً من بلدة القُطيفة، ويعرف اليوم باسم خان العروس.

لكنا عثرنا على نص(٦) منقوش على الحجر فوق بوابته تمكنا من نشره كاملاً قبل فقده في عام ١٩٧٣ يسميه فندقاً وينسب بناءه إلى السلطان صلاح الدين، سنة سبع وسبعين وخمسمائة (١١٨١م).

ويضمحل إصطلاح الفندق في العهود اللاحقة، ليظهر في عصرنا كترجمة للمصطلح الأوربي (أوتيل ـ Hotel) الذي أطلق على المؤسسات الحديثة المخصصة لنزول السياح والمسافرين.

٣ـ الخان:

وهو مصطلح فارسي معرَّب، ويعني القصر أو المنزل الكبير. وأقدم ما عثرنا عليه في النصوص العربية لهذا المصطلح يرجع إلى القرن الثالث الهجري (التاسع ميلادي)، وذلك عند البلاذري(٧) المؤرِّخ، حين تحدث عن أحد الثغور الشامية القريبة من أنطاكية، قال: «وكانت منازلها كالخانات». ولعله قصد بالمنازل ليس المساكن العادية، بل منشآت مخصصة لنزول الغرباء، لأننا عثرنا على ذكر لهذا المصطلح عند مؤرخي القرن السادس الهجري، حيث ذكر ابن القلانسي موقعاً قرب دمشق سماه «منازل العسكر»(٨). وذكر ابن عساكر(٩) منازل عديدة في ضواحي دمشق. ويبدو أن المنازل لم تكن منشآت كالخانات والفنادق، بل أماكن مخصصة لنزول الغرباء والقوافل أو معسكرات للجند.

وهناك أبنية في البادية من العهد الروماني يطلق عليها اسم الخانات، كخان الحلابات وخان التراب، لكنا نرجح أن إطلاق اسم الخان عليها كان في وقت متأخر عن عهد بنائها.

لكن مصطلح الخان أطلق فعلاً منذ العهد الأيوبي على منشآت التجارة والسفر إلى جانب الفندق، وبدأ بالشيوع كمرادف له، ثم حل نهائياً، ومع أننا لا نجد عند ابن عساكر من القرن السادس الهجري أي ذكر للخانات فإننا نجد المؤرخين الذين أتوا بعده، أخذوا يفضلون كلمة الخان، حتى أن الرحالة ابن جبير الذي زار الشام في العهد الأيوبي، حين مر بفندق صلاح الدين الذي مر ذكره، أسماه «خان السلطان».

ومازالت سورية تحتفظ بالعديد من الخانات من مختلف العهود، داخل المدن وعلى الطرقات العامة، أدرجنا أسماء معظمها في اللائحة الإحصائية من هذا البحث.

أما من حيث الوظيفة، فإننا نجد الفنادق والخانات مخصصة للأغراض التجارية والسياحية بشكل عام، فهي إما محطات لقوافل التجار والمسافرين والحجاج من الطرق العامة، وإما منازلُ للتجار وأماكن لبيع السلع داخل المدن ويبدو أن معظم الخانات، ولاسيما في العهود الأخيرة، كان كل منها مخصصاً لسلعة معينة أو مهنة من المهن والصناعات، كما يظهر من الأسماء التي أُعطيت لها، أو ماذكرته المصادر التاريخية عن نشاطاتها.

ونذكر فيما يلي ما عثرنا عليه من أسماء السلع والمهن التي اقترنت بعدد من الفنادق والخانات، وقد بلغت ثلاثين سلعة ومهنة أطلقت على مجموعة من الخانات: خان الملح - الطحين - الزيت - الرز - البيض - العنب - اللبن - البرغل - الصنوبر - الصابون - الحرير - الحنّاء - الخشب - التتن (التبغ) - القطن - الجوار والرقيق - الجمرك - الزعفر نجية - الخضيرية - الدقاقين - الخياطين - النحاسين - الماردانية - النسيج - الفتالين - الجوخية - الألاجة (نوع من النسيج) - العلبية - الدواليب (للف الخيوط) - الفرايين (بائعي الفراء).

٤. القيسارية:

تجمع على قيساريات وهي معربة عن الكلمة اللاتينية (Caesarum)، وتعني في الأصل البناء الملكي أو الأمبراطوري، اشتقت من كلمة - Caesar (قيصر) لقب أباطرة الرومان.

شاع هذا الإصطلاح في العهد العربي الإسلامي وأطلق على المباني ذات الوظيفة الاقتصادية المخصصة للمهن والحرف، وأحياناً لسلعة من السلع.

وبعضها لنزول التجار، أو لسكن الجاليات الأجنبية، ويختلط الأمر في القرون الأخيرة فينتفي التمييز بين القيسارية والخان.

ونذكر هنا ماعثرنا عليه من الوظائف التي اقترنت بأسماء القيساريات، وهو: قيسارية الصياغ - القواسين (صانعي أقواس الرماة) - السلاح - مسبك الفولاذ - القطن - البهار - نسج الحرير.

وأقدم استخدام لهذا المصطلح عثرنا عليه، يرجع إلى العهد الفاطمي، حيث ذكر المؤرخ ابن عساكر خبراً عن القيسارية الفخرية، ونسبها المؤرخ ابن عساكر خبراً عن القيسارية الفخرية، ونسبها المؤرخ ابن تغري بردي[١٠] إلى الشريف فخر الدين، متولي القضاء في دمشق في أيام الظاهر العبيدي، المتوفي عام ٤٣٤ للهجرة.

٥. الوكالة:

شاع هذا المصطلح العربي في مصر بشكل خاص، منذ العهد المملوكي، وأطلق على المؤسسات ذات الصفة التجارية والمهنية كمرادف للخان والقيسارية، ولم نعثر على استعمال له في سورية والبلاد الشامية الأخرى إلا أننا وجدنا عبارة «دار الوكالة» عند المؤرخ ابن عساكر[١١]، دون إيضاح لوظيفة هذه الدار التي تبدو كإحدى المؤسسات العامة وكانت في دمشق على أيامه، أي في القرن السادس الهجري. لكن المحجي في كتابه «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»[١٢] يذكر وكالة من العهد العثماني في دمشق ويشرح لنا معناها، شعوراً منه بانها اسم غريب وغير شائع فيقول: «والوكالة اسم للخان في عرف المصريين، والدمشقيون يسمونها قيسارية». وتعتبر وكالة الغوري في القاهرة اليوم أشهر الوكالات المعروفة وهي من العهد المملوكي، تنسب للسلطان قانصوه الغوري، شيّدت حوالي

عام ٩١٠هـ (١٥٠٥م)، وتشبه هندستها الخانات والقيساريات، لكنها مؤلفة من خمسة طوابق، بدلاً من طابقين.

ثالثاً: الخطوط العامة للهندسة والفن المعماري في العمائر الاقتصادية القديمة:

من السهل التعرف على هندسة هذه المنشآت وتصميمها المعماري وعناصرها الفنية التي تمثل العصر الذي أنشئت فيه، فما يزال العديد منها باقياً بحالة جيدة، شواهد حية أمام أعيننا، لاسيما تلك التي شيّدت في العهد العثماني، والذي بلغت فيه قمة تطورها. فالخانات المقامة على الطرق العامة كمحطات للقوافل، كانت ذات طابق واحد مؤلف من فناء حوله قاعات واسعة، ومسجد أحياناً، بينما جعلت الخانات والقيساريات المقامة داخل المدن من طابقين، وتتكون من فناء سماوي جعل في معظم خانات العهد العثماني مغطى بسقف من القباب، ويتوسط الفناء بركة ماء، ويحيط به مستودعات واسطبلات في الطابق الأرضي، بينما الطابق العلوي مؤلف من مجموعة من الغرف مفتوحة على رواق مشرف على الفناء، وهي مخصصة لنزول المسافرين ومكاتب للتجار، وقد يتوسط المسجد أو يقام في ركن من أركان الطابق الأرضي. وتزودنا المصادر وكتب الرحلات بوصف لما اندثر من هذه المنشآت، ولاسيما منها القيساريات التي لم يبق منها سوى النذر اليسير.

وصف المؤرخ ابن كثير[١٣] قيسارية يلبغا في دمشق المشيدة في العهد المملوكي عام (٧٤٧هـ/١٣٤٦م) بقوله:

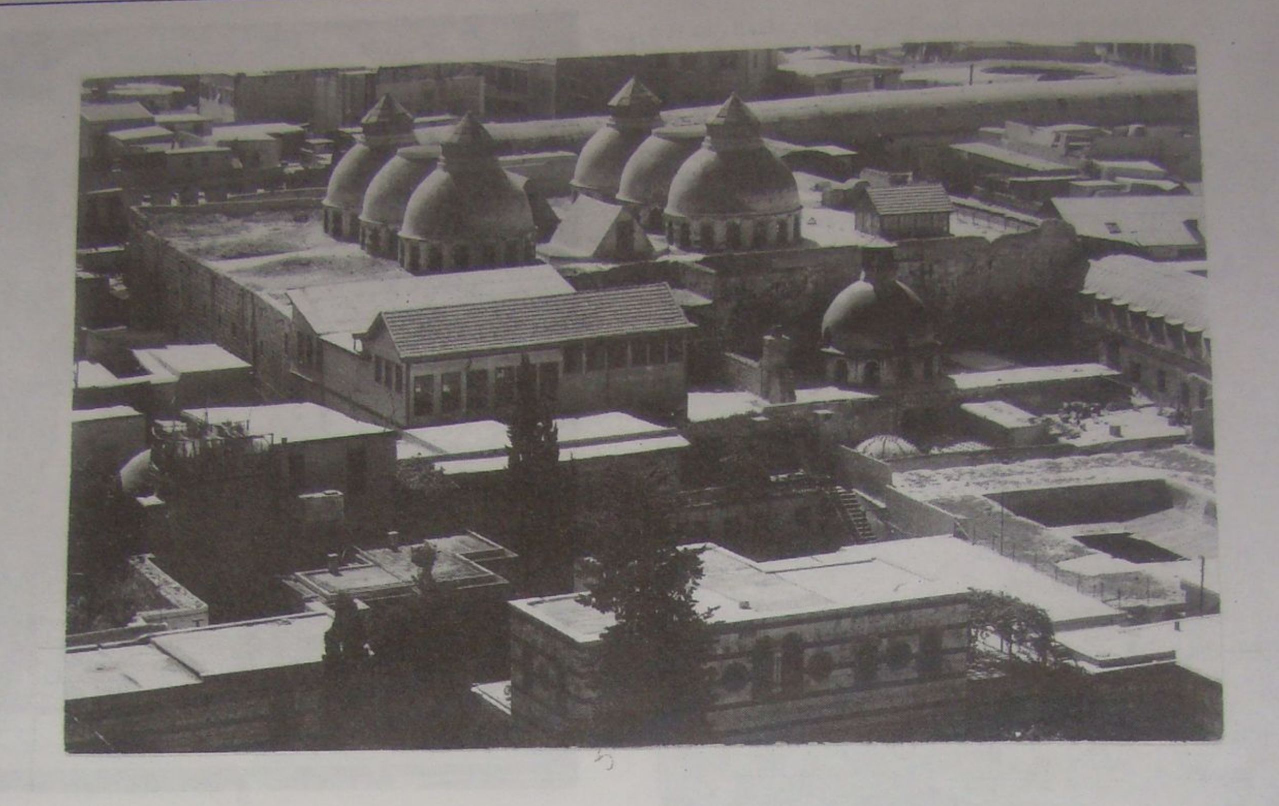
«إن داخلها قيسارية تجارية، في وسطها بركة ومسجد، وظاهرها دكاكين، وأعاليها بيوت للسكن».

ونجد وصفاً مفصلاً لقيسارية أخرى زائلة هي قيسارية الأمير قجماس الإسماقي نائب السلطنة في دمشق، وفي وقفية مخطوطة[١٤] ورد فيها مايلي: «يُغلق عليها باب خاص مبني بالحجارة المنحوتة في جدارها القبلي، يُتوصل منه إلى دُركاه (دهليز) مسقوفة، يُستطرق منها إلى ساحة سماوية مبنية جُدرُها بالحجارة المنحوتة، وبها بركة ماء يجري إليها الماء من نهر القنوات، وتشتمل على ثماني قاعات معدة لنسيج الحرير، لكل منها باب خاص، وشباك مطل على الساحة المذكورة. ولكل منها منافع ومرافق».

ويحسن أن ننهي هذه الفقرة بايراد ماسجله الرحالة الأجانب في القرون الماضية من وصف لبعض الخانات وما تركته في نفوسهم من انطباعات.

لقد وصف الرحالة الفرنسي Darvieux[١٥] الذي زار دمشق عام ١٦٦٠م خاناتها بقوله: «إنها مبنية بناء متقناً، توجد في الطابق الأرضي المخازن، وفي العلوي أروقة تؤدي إلى الغرف، حيث لكل منها قبة مصفحة بالرصاص».

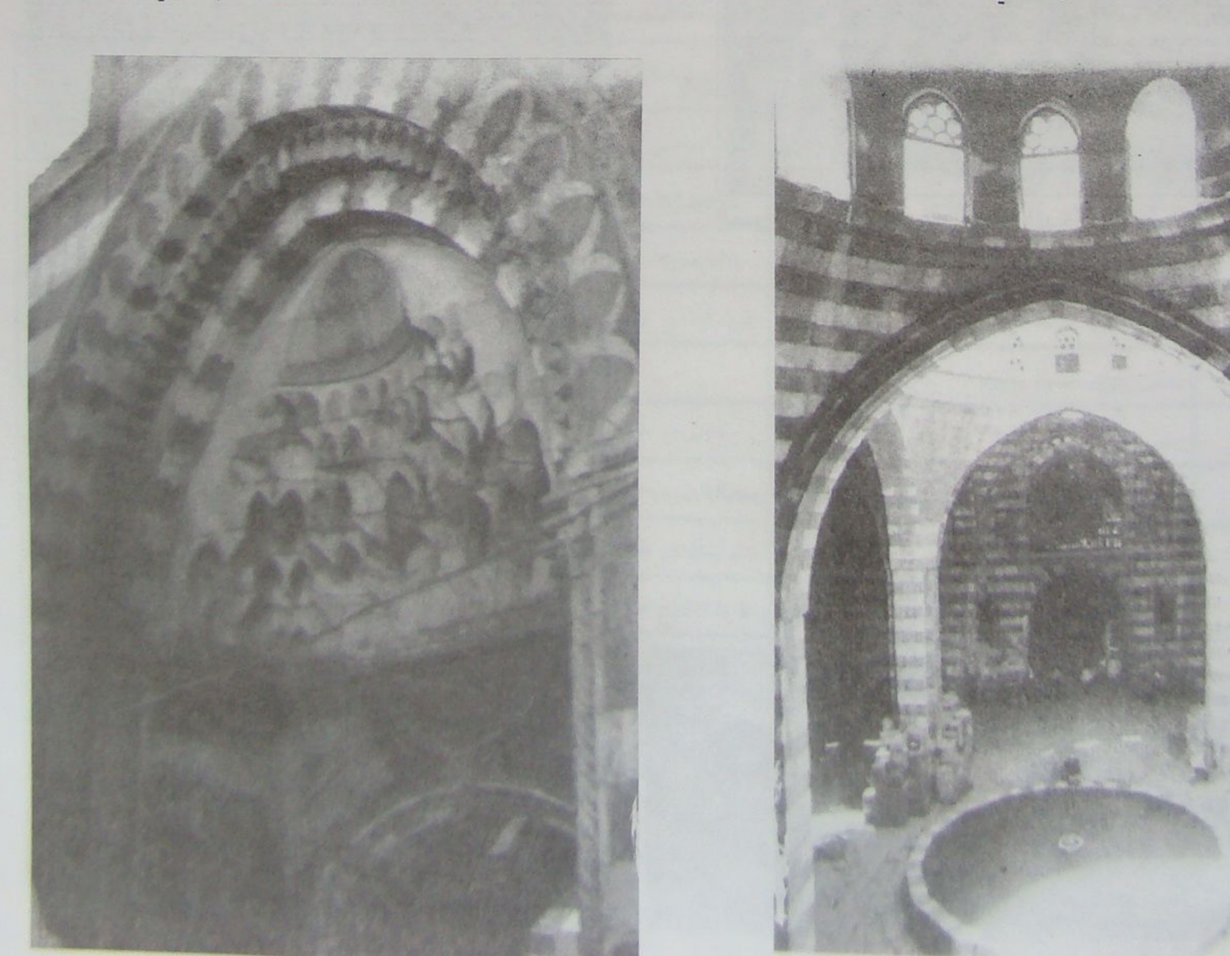
ووصف الشاعر الفرنسي المشهور (لامارتين) الذي زار دمشق في عام ١٨٣٣ خان أسعد باشا العظم بأن غرف التجار كانت في الطابق العلوي، وأن التاجر المرموق كان يستأجر غرفة ليضع فيها بضاعته الثمينة، ونعتقد أنه يقصد بذلك التجار الأجانب، ويضيف قوله: وكان في جانب الخان اسطبل لخيل المسافرين والقوافل. وأبدى لامارتين هذا دهشته العظيمة حين وقف يتأمل بوابة الخان الرائعة البنيان، فوصفها بقوله: إنها قطعة من العمارة الإسلامية لانظير لها في العالم، ثم سجل الشهادة الهامة التالية: «إن شعباً فيه مهندسون لديهم الكفاءة لتصميم مثل هذا البناء، وعمالاً قادرون على تنفيذه لجدير بالحياة والفن»[١٦].



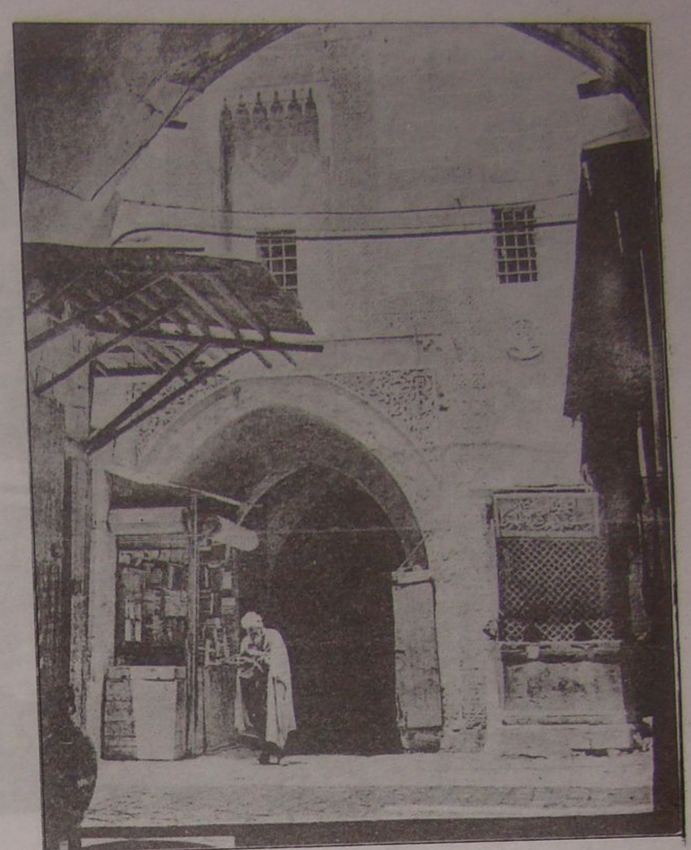
الصورة ١: خان أسعد باشا العظم في دمشق - منظر عام للخان مع الأسواق المحيطة به.

الصورة ٢: خان أسعد باشا - منظر داخلي

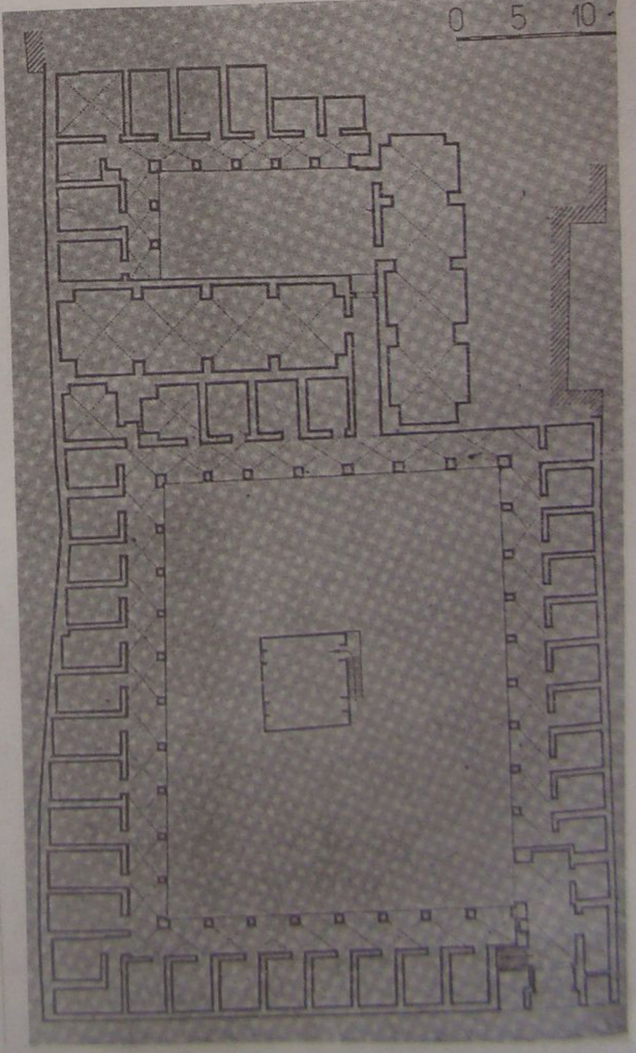
الصورة ٢: خان أسعد باشا - بوابة الخان، القسم العلوي

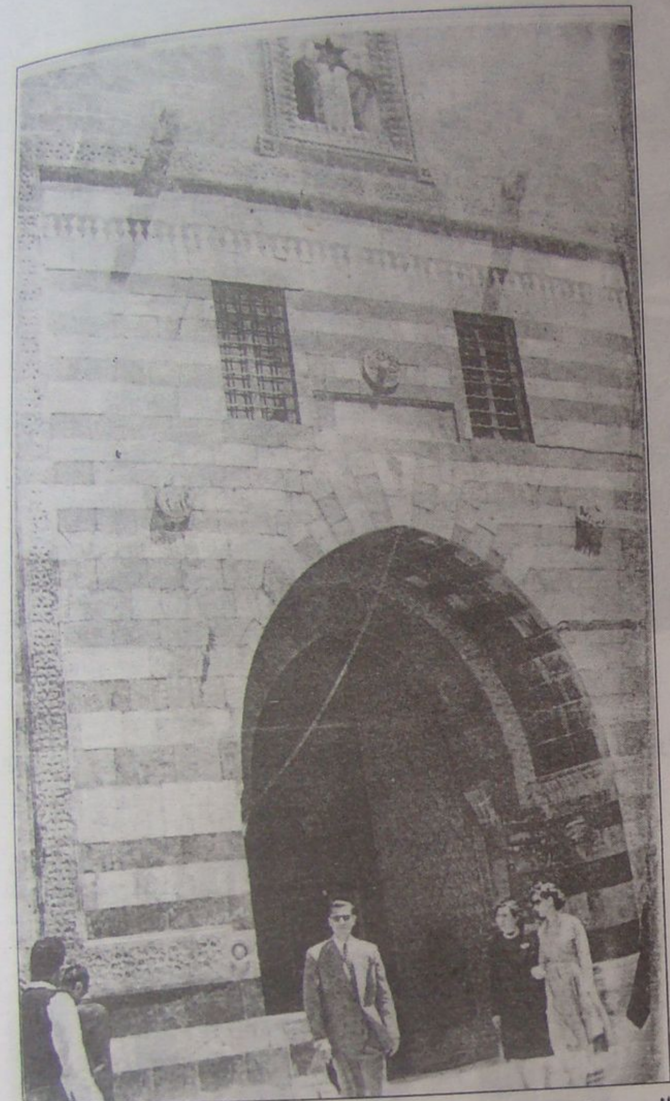


الصورة ٤: خان الصابون في حلب ـ المدخل والواجهة الخارجية.



ـورة ٥: مخطط (مسقط أفقي) خان القصابية في حلب.





الصورة ٦: خان الوزير في حلب ـ المدخل والواجهة

الصورة ٨: خان العروس ـ منظر داخلي.





الصورة ٧: خان السبيل، في الطريق بين حلب والمعرة - المدخل والواجهة الخارجية

جدول بالمنشآت الاقتصادية التاريخية

اسم المبنى	الموقع	العصر	تاريخ البناء	الملاحظات
خان نور الدين	القطيفة(طريق دمشق - حمص)	سلجوقي	لقرن السادس الهجري	بقيت أقسام منه في منطقة البساتين
خان العروس	دمشق - حمص (قرب القطيفة)	أيوبي	٧٧٥هـ/١٣٧٣م	فندق صلاح الدين سابقاً، حالة جيدة(الشكل رقم٨)
قيسارية الصياغ	دمشق(سوق الصاغة)	أيوبي	٦٣١هـ/١٢٣٣م	احترقت وجددت أكثرمن مرة، آخر حريق لها كان عام ١٩٦٠م
خان جقمق	دمشق(سوق مدحة باشا)	مملوكي	القرن التاسع الهجري	موجود بحالة جيدة
خان التكة	دمشق(سوق مدحة باشا)	مملوكي		حالته جيدة
خان خاير بك	حلب(سويقة علي)	مملوكي	٩٢٠هـ/١٥١٤م	حالته جيدة
خان القصّابية	حلب(سوق القصابيّة)	مملوكي	٩١٦هـ/١٥١٠م	حالته جيّدة(انظر الشكل رقم١)(الشكل رقم ٥)
خان أوج خان	حلب(سوق النحاسّين)	مملوكي	القرن العاشر هجري	يحتفظ ببواته الهامّة ويسمّى حالياً خان العطشان
خان الصابون	حلب(محلّةالسويقة)	مملوكي	القرن التاسع هجري	حالته جيّدة(انظر الشكل٢)(الشكل رقم ٤)
خان القاضي	حلب(محلّة باب قنسرين)	مملوكي	٨٥٤هـ/١٤٥٠م	حالته جيّدة (قرب البيمارستان الأرغوني)
مصبغة الزنابيلي	حلب(سوق النحّاسين)	مملوكي	٩١٦هـ/١٥١٠م	يبقي منها الباب والباقي مجدد حديثاً
خان دنون	طريق دمشق - درعا (يبعد عن دمشق ٢	مملوكي	٧٧٨هـ/١٣٧٦م	بناء حصين، حالته جيّدة
خان المعزّ	طريق دمشق - حمص(قرب االقطيفة)	مملوكي		عليه كتابة تؤرخ بناءه غير مقروءة
خان طومان	قرية خان طرمان(١٥كم جنوبي حلب)	مملوكي		يقع على طريق الخط الحديدي

خان السبيل	قرية خان السبيل (حلب - حماة)	مملوكي	٧٣٣هـ/١٣٧٢م	له بوّابة حصينة (الشكل رقم ٧)
خان العسل	قرية خان العسل (١٥كم غربي حلب)	مملوكي	٧٤٤هـ/١٣٤٣م	بقيت منه بوّابته
خان عيّاش	طريق دمشق - بغداد (قرب قرية عدرا)	مملوكي	٦٩٠هـ/١٢٩١م	
خان سعسع	قرية سعسع (دمشق - القنيطرة)	عثماني	٩٩٤هـ/١٥٨٥م	مازال موجوداً
خان القطيفة	قرية القطيفة (دمشق - حمص)	عثماني	القرن العاشر هجري	جزء من مجمّع معماري يضم حمّاماً ومسجداً أنشأه الوالي سنان باشا لخ
خان المضيق	قلعة المضيق (حماة - جسر الشغور)	عثماني	٩٣١هـ/١٥٢٤م	مازال موجوداً خارج القلعة، قرب أفاميا
خان أسعد باشا العظ	معرّة النعمان	عثماني	١١٦٦هـ/١٧٤٨م	مازال موجوداً - تحوّل إلى متحف حديثاً
خان مراد حلبي	معرّة النعمان	عثماني	٩٧٤هـ/١٥٦١م	مازال موجوداً
خان الجوخيّة	دمشق (سوق الخيّاطين)	عثماني	٩٦٠هـ/١٥٥٢م	حالته جيّدة، يعرف اليوم بخان الخيّاطين
خان الحرير	دمشق (سوق الحرير)	عثماني	٩٨١هـ/١٥٧٣م	وهو قيساريّة درويش باشا والي دمشق
خان سليمان باشا	دمشق (سوق مدحة باشا)	عثماني	١١٤٥هـ/١٧٣٢م	عرف قديماً بخان الحماصنة
خان أسعد باشا العظ	دمشق (البزوريّة)	عثماني	١١٦٧هـ/١٧٥٣م	أشهر الخانات وأحسنها بناءً (انظر الأشكال ١،٢،٣)
خان العمود	دمشق (سوق البزوريّة)	عثماني	١١٦٥هـ/١٧٥١م	خان صغير قبالة خان أسعد باشا
خان المراديّة	دمشق (باب البريد)	عثماني	١٠٠٢هـ/١٥٩٣م	تهدّم وجدّد في مطلع القرن العشرين
خان الجمرك	دمشق (باب البريد)	عثماني		تباع فيه حالياً الأقمشة النسائيّة في سوق القلبقجيّة
خان قطنا	دمشق (باب البريد)	عثماني		حالته جيّدة، موجود حالياً في سوق القلبقجيّة
خان الزعفرانجيّة	دمشق (باب البريد)	عثماني		في سوق القلبقجيّة، حالته جيّدة
خان الحرمين	دمشق (باب البريد)	عثماني	القرن الحادي عشر الهجري	البناء الحالي مجدّد من القرن التاسع عشر
خان الزيت	دمشق (سوق مدحة باشا)	عثماني		مازال موجوداً
خان الصدرانيّة	دمشق (سوق البزوريّة)	عثماني		مجاور لقصر العظم، حالته جيّدة
خان التتن	دمشق (سوق السلاح)	عثماني	—	كان مخصّصاً لبيع التبغ، أقدم خبر عنه يرجع لعام ١٤٧١هـ/١٧٥٧م
خان القطن	دمشق (محلّة الخضيرية)	عثماني		كان يعرف بخان الخضيريّة
خان قوريت بك	حلب (الأسواق القديمة)	عثماني	القرن العاشر الهجري	يعرف اليوم بخان قرطبة، فيه قطعة من قصر مملوكي
خان الجمرك (الكمرك)	حلب (الأسواق القديمة)	عثماني	٩٨٢هـ/١٥٧٤م	حالته جيّدة
خان الوزير	حلب (السويقة)	عثماني	١٠٩٣هـ/١٦٨٣م	حالته جيّدة (الشكل رقم ٦)
خان النحّاسين	حلب (سوق المحمّص)	عثماني		حالته جيّدة
خان البرغل	حلب (محلّة الجلوم)	عثماني		
خان الطاف	حلب (محلّة الجلوم)	عثماني		
خان التتن	حلب	عثماني		
خان البنادقة	حلب (منطقة الأسواق)	عثماني		ينسب الى تجار البندقية (فينيسيا) الإيطالية
خان العلبيّة	حلب (منطقة الأسواق)	عثماني		
خان الغرابين	حلب (منطقة الأسواق)	عثماني		
خان رستم باشا	حماة	عثماني		
خان الجمرك	حماة	عثماني		
خان الحنّاء	حماة	عثماني		
خان مراد حلبي	معرّة النعمان	عثماني	٩٢٣هـ	
خان أسعد باشا	معرّة النعمان	عثماني	١١٥٨هـ	

المراجع:

١ـ ابن عساكر (الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن)، المتوفى سنة ١٧٥هـ.
تاريخ مدينة دمشق : ـ المجلدان الأول والثاني، طبعة المجمع العلمي بدمشق، تحقيق د. صلاح المنجد، دمشق ١٩٥١, ١٩٥٤
ـ المجلد العاشر، تحقيق محمد أحمد دهمان، ١٩٦٣
ـ المجلد الرابع، تحقيق د. شكري مصطفى
ـ مخطوطة المكتبة الظاهرية في دمشق
٢ـ ابن القلانسي (أبو يعلي حمزة) القرن السادس، الهجري ذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨
٣ـ ابن جبير، أواخر القرن السادس الهجري، الرحلة، تحقيق د. حسين نصار، دار الطباعة بمصر، ١٩٥٥
٤ـ ابن بطوطة، القرن الثامن الهجري، تحفة النظار . . .، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٣٨
٥ـ ابن تعزى بردي (جمال الدين يوسف) المتوفى سنة ٨٤٧هـ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٤٢
٦ـ ابن العديم، المتوفى سنة ٦٥٦هـ، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق د. سامي الدهان، المعهد الفرنسي بدمشق
٧ـ ابن كثير (عماد الدين اسماعيل)، المتوفى سنة ٧٧٤ للهجرة، البداية والنهاية، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٣٢
٨ـ البلاذري (الامام أحمد بن يحيى)، المتوفى سنة ٢٧٩هـ، كتاب فتوح البلدان، القاهرة ١٩٠١
٩ـ المحبي (محمد) المتوفى سنة ١١١١هـ، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، القاهرة، ١٢٨٤هـ.
١٠ـ سجلات المحاكم الشرعية (دمشق وحماة)، مديرية الوثائق، دمشق
١١ـ حبيب الزيات : الخزانة الشرقية، بيروت
١٢ـ نعمان قساطلي : الروضة الفناء من دمشق الفيحاء، بيروت ١٨٧٩
١٣ـ أسعد طلس : الآثار الإسلامية والتاريخية من حلب، دمشق، ١٩٣٩
١٤ـ عبد العزيز سالم : دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، الاسكندرية (بدون تاريخ).
١٥ـ عبد القادر الريحاوي : كتاب العمارة العربية الإسلامية، خصائصها وآثارها في سورية، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٧٩
١٦ـ عبد القادر الريحاوي : خانات مدينة دمشق، الحوليات الأثرية السورية المجلد ٢٥، عام ١٩٧٥
Darvieux Ch., 1735: Mémoire de Chevalier Darvieux, Paris.
Encyclopédie de l'Islam, N.E., Paris, 1960.
Lamartine A. de, 1851: voyage en Orient, 2vol., Paris.
Lortet Dr., 1884: la Syrie d'aujourd'hui, Paris.
Porter L., 1918: five years in Damascus, 2 vol., London.
Répertoire chronologique d'Epigraphie Arabe, 16 vol. le Caire, 1931-64.
Sauvaget J., 1941: Alep, Paris.
Volney de, 1785: voyage en Syrie, vol. II, Paris.